سورة ص

سورة ص مكية وآياتها ثمان وثمانون آية.

[١-٢] سبق الكلام علىٰ الحروف المقطعة في أول سورة البقرة. ثم أقسم جل وعلا بهذا القرآن العظيم المشتمل علىٰ مصالح العباد في الدنيا والآخرة، وعلىٰ تذكيرهم بما هم عنه غافلون، وتذكيرهم بقصص الأنبياء والأمم الماضية التي تكبرت وكفرت بدين الله، ثم أخبر سبحانه بأن الذين كفروا في تكبر واستعلاء ومشاقة ومعاداة للرسل ولما أَتَوْا به.

[٣] ثم ذكر جل وعلا أنه أهلك كثيرًا من الأمم السابقة التي أنزل بها الدمار والهلاك؛ فلما رأوا العذاب نادوا بالتوبة بعد أن فات وقتها، وبحثوا عن مَخْرَج أو مغيث فلم يجدوا من يغيثهم أو يخلصهم، والمراد تحذير كفارِ مكة من أن يكون مصيرهم كهؤلاء الذين وُصفت حالتهم.

[٤-٥] يخبر جل وعلا أن هؤلاء المشركين تعجبوا من بعث الله إليهم بشرًا منهم يدعوهم إلىٰ التوحيد ويخوفونهم عذاب الله، ثم قالوا: إنه ليس رسولاً؛ بل هو كاذب فيما يزعمه عن الله، وإنه ساحر من السحرة؛ لأنه يأتي بأمور خارقة لا يقبلها عقل. والأعجب من ذلك أنه جعل الآلهة إلهًا واحدًا؟ ولا شك أن هذا الذي جاء به لشيء يدعو للتعجب والاستغراب.

[٦-٧] وانطلق أشراف قريشٍ ومن لهم كلمة مسموعة في قومهم قائلين لهم، ومحرضين إياهم علىٰ الثبات علىٰ الشرك: اصبروا علىٰ عبادة آلهتكم - وإن تعدَّدت -، فإن هذه الدعوةَ التي قام بها محمد ﷺ مقصودةٌ، ومُرادُه من ذلك: أن يقودكم ويسوسكم، ويكون له الأمر عليكم. ثم قالوا لهم: يا قومنا لم نسمعْ بمثل هذه الدعوة في الملة النصرانية التي هي آخر الملل، ولا سمعنا آباءنا ولا آباءهم يقولون بها، لقد جاء محمد بأمر افتراه واخترعه من عند نفسه.

[٨] ثم يسأل هؤلاء المشركون: هل اختُصَّ محمدٌ - من بيننا - لوحده بنزول الذكر والقرآن والدين عليه؟ ثم بين سبحانه أن الكفار يكذبون النبي ﷺ ويفترون عليه بدون علم ولا بينة، وإنما تجرؤوا علىٰ ذلك لأنهم اغتروا بإمهالهم، ولم يذوقوا العذاب، ولم يحل بهم الهلاك، وسيعلمون حين يعذَّبون أن ما جاءهم به هو الحق، ولن ينفعهم العلم بذلك حين ينزل بهم العذاب.

[٩-١٠] ثم رد سبحانه منكرًا عليهم فقال: أم أن هؤلاء المشركين يملكون خزائن فضل الله، العزيز الذي لا يستطيع أحد أن يمنعه أن ينزل هذا القرآن علىٰ محمد ﷺ، الوهاب الذي لا منازع له؟. أم أنهم يملكون السماوات والأرض وما بينهما فيعطون منها كيفما شاءوا؟ فإذا كان لهم قدرة فليأخذوا بالأسباب التي توصلهم إلىٰ السماء، ثم ليغيروا الأحكام والتصرفات التي لا تروق لهم، وهيهات؛ فلا منازع له ولا راد لقضائه جل في علاه.

[١١] ثم يبشر جل وعلا نبيه ﷺ فيقول له: فلا تحزَن يانبي الله لعناد هؤلاء المشركين وشقاقهم، فإنهم مهزومون كما هُزمت من قبلهم الأحزاب التي تحزبت علىٰ رسلها وكذبتها.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ٢
كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ٣ وَعَجِبُوٓاْ
أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ٤
أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ٥ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ
مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ٦
مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ٧ أَءُنزِلَ
عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ
٨ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ ٩ أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ ١٠ جُندٞ
مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ ١١ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ
وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ ١٢ وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٖ وَأَصۡحَٰبُ
لۡـَٔيۡكَةِۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ ١٣ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ
فَحَقَّ عِقَابِ ١٤ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا
مِن فَوَاقٖ ١٥ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ١٦

[١٢-١٣] ثم بين سبحانه لنبيه ﷺ تسلية له أن كثيرًا من الأقوام قبل قومك كذبوا رسلهم؛ فقد كذبت قبلهم قوم نوح، وعاد قوم هود، وفرعون صاحب الجنود الهائلة والقوة العظيمة. وكذلك ممن كذبوا رسلهم: ثمود قوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب الذي أرسله الله إلىٰ مدين، وأرسله إلىٰ أصحاب الأيكة ذات الأشجار والبساتين الكثيفة الملتفَّة، فهذه بعض الأحزاب التي تحزبت وتجمعت واتفقت علىٰ الكفر بربها، وتكذيب رسلها.

[١٤] ثم أخبر سبحانه أن كلَّ هؤلاء كذبوا الرسل، وجحدوهم، ولم يؤمنوا بما جاؤوهم به من التوحيد والإيمان، فحقَّ عليهم عذاب الله، ونزل بهم عقابه وسخطه.

[١٥] ثم بين سبحانه أن هؤلاء المشركين ما ينتظرون من نزول العذاب الذي سيحل بهم إلا نفخةً واحدةً ليس لها تكرار، قال ابن عباس رضي الله عنه في قوله: ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ﴾: أي: ما لها من رجوع، وقال بعض المفسرين: إن هذه الصيحة إذا جاءت لا تستأخر ولو فترة قصيرة مقدار فواق ناقة، وهي المدة ما بين الحلبتين لأنها تجيء في موعدها المحدد.

[١٦] ثم قال هؤلاء المشركون: ربنا عجل لنا نصيبنا من العذاب الذي توعدنا به محمد ﷺ، ولا تؤخره إلىٰ يوم القيامة. قال بعض المفسرين: قالوا هذا علىٰ سبيل السخرية والاستهزاء والاستبعاد. والقطّ: هو النصيب، وأصله الصك أو الرقعة التي يكتبها الوالي؛ فهم يستعجلون نصيبهم من العذاب يريدونه في الدنيا.

اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا
سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ
مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ
وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ * وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا
الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ
خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ
وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً
وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ
لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي
بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ
مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩
﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٢٥﴾
يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ
وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ
عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾

[١٧] ثم قال جل وعلا لنبيه ﷺ مؤنسًا ومسليًا: واصبر يانبي الله علىٰ ما يقول هؤلاء المشركون مما تكره، فسوف يرون ما يسوؤهم، واذكر قصة عبدنا داود صاحب القوة في تنفيذ أوامر الله؛ لقد كان كثير الرجوع إلىٰ ما يرضي الله.

وأمره جل في علاه لنبيه ﷺ بالصبر ليتقوىٰ علىٰ ما يلاقي من تعنت قومه وأذيتهم.

[١٨] ثم أخبر جل وعلا أنه سخر لداود الجبال يرددن معه التسبيح والتنزيه لله إذا سبح الله صباحًا ومساءً.

[١٩] وأخبر سبحانه أنه سخر له أيضًا الطير تردد التسبيح معه، واعلموا أن كلًّا من الجبال والطير رجَّاعٌ لله سبحانه وتعالىٰ، قال مجاهد: كان داود يسمع تسبيح الجبال والطير.

[٢٠] وأخبر سبحانه أنه قوَّىٰ ملك داود وثبته، وأعطاه النبوة والحكم والفصل بين الناس في النزاعات والخصومات.

[٢١-٢٢] ثم قال سبحانه لنبيه ﷺ: وهل جاءك يانبي الله خبر المتخاصمين اللذيْنِ لم يدخلا علىٰ نبي الله داود عليه السلام؛ بل طلعا علىٰ سور منزله ودخلا عليه في محل عبادته بلا استئذان؛ فخاف منهما وفزع لذلك، فطمأناه قائلين: لا تخف ولا تفزع، فما نحن إلا خصميْن ظلم أحدنا الآخر، فاحكم وافصل بيننا بالعدل، ولا تظلم بأن تميل مع أحدنا دون الآخر، ودلّنا علىٰ الحق وأرشدنا إليه، واحملنا عليه.

[٢٣] فقال أحدهما: إن هذا أخي عنده تسع وتسعون نعجة، وأنا ما عندي إلا نعجة واحدة، فطلب مني أن يأخذها، وتكون له ويُدخلها في نعاجه لتكمل المئة، وغلبني في الحجة والكلام والجدال.

[٢٤] فقال داود عليه السلام مباشرةً – وقيل: إنه لم يسمع من الآخر –: لقد ظلمك وتجاوز حدَّه في طلبه أن تضم نعجتك إلىٰ نعاجه، وإن كثيرًا من الشركاء والقرناء ليعتدي بعضهم علىٰ بعض، ويتجاوز بعضهم في حق بعض، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فهؤلاء يمنعهم إيمانهم وعملهم الصالح من الظلم والتعدي والبغي، وهذا الصنف من المؤمنين قليلٌ جدًّا، ولما حكم داود بينهما أيقن أنَّ الله اختبره وامتحنه في هذه القضية، وأنه لم يوفق في الحكم؛ حيث لم يسمع كلام وحجة صاحب النعاج الكثيرة؛ ولهذا طلب من الله المغفرة لما صدر منه، ثم خرَّ ساجدًا لله، ورجع إلىٰ ربه ومولاه بالتوبة النصوح وبالعبادة معترفًا أنه تسرع، ولذا لم يكمل التحقيق في القضية.

[٢٥] ثم أخبر جل وعلا أنه غفر لداود عليه السلام، وَقَبِلَ توبته وإنابته، وأخبر أن له منزلةً عاليةً، ومرجعًا حسنًا، ودرجات عاليات في جنات النعيم.

والنعجة المذكورة في هذه الآية هي الشاة المعروفة، وليست المرأة كما قال القرطبي في تفسيره.

وداود عليه السلام أخذته العاطفة والرحمة والشفقة بصاحب النعجة فاستعجل الحكم وحكم قبل أن يستمع لكلام خصمه فعاتبه ربه، فلما أدرك أنه أخطأ استغفر ربه وخر ساجدًا له، فعفا الله عنه.

أما حكاية زوجة أوريا التي قيل: إن داود رآها تغتسل فأعجبته، فهي من افتراءات اليهود، ومعلوم أنَّ جرأة اليهود علىٰ أنبيائهم كبيرة وكثيرة؛ فقد قتلوا زكريا ويحيىٰ، وقالوا: إن سليمان سخر الجن بالسحر، وقالوا: إن موسىٰ عليه السلام آدر، وقالوا لقريش: إن دينكم أحسن من دين محمد ﷺ، والقصة التي افتروها علىٰ داود لا تصدر عن أحد من الصالحين؛ فضلًا عن الأنبياء المعصومين من الكبائر، وهذه ليست من اللَّمَمَ.

والحق أن تسور الخصمين علىٰ داود في محرابه من أجل عرض قضيتهم عليه، وهي مسألة النعاج التي حصلت بينهم، والنعاج: هي أنثىٰ الشياه، أي: الغَنَم، والمأخذ عليه أنه حكم فقال: لقد ظلمك قبل أن يستوضح من الخصم الآخر.

[٢٦] ثم أخبر سبحانه أنه جعل نبيه داود خليفة في الأرض، وأمره أن يحكم بين الناس بالحق والعدل، وأن يحذر من اتباع هواه بأن يميل مع أحدٍ في القضاء؛ فيكون ذلك سببًا في ضلاله وإخراجه عن الصراط المستقيم؛ فإن الذين يضلون عن سبيل الله باتباع أهوائهم، وترْك أحكام الله، – من القُضاة وغيرهم – هؤلاء لهم عذابٌ شديدٌ مؤلمٌ موجعٌ بسبب اتباع أهوائهم، وبسبب غفلتهم عن الآخرة، ونسيانهم العرْض علىٰ الله والوقوف بين يديه.

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ
﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟
ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ
﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ
حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى ۖ حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ
فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ
وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ
لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾
فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ
كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا
عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ
مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ
بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾

[٢٧] يخبر جل وعلا أنه ما خلق هذه السماء وهذه الأرض وما بينهما عبثًا ولعبًا من غير مصلحة وحكمة مقصودة، فهذا ظن لا يليق بالله، وهو ظن الذين كفروا بالله ورسله، فويلٌ لهم من نار جهنم.

[٢٨] ثم يخبر جل وعلا أن من حكمته عدم المساواة بين أهل التقوىٰ وأهل الفجور، فيقول سبحانه: وهل نساوي بين الذين آمنوا بالله وصدقوا رسله وعملوا الأعمال الصالحة، بالمفسدين في الأرض بالشرك والظلم والبغي؟ وهل نساوي بين من آمن بالله وخافه، وجعل بينه وبين عذابه وقاية بإطاعة أوامره واجتناب نواهيه، بمن هو فاجرٌ خارجٌ عن طاعة ربه؟!! فهذا غير لائق بحكمته وعزته؛ فتقدس وتنزه سبحانه عن ذلك.

[٢٩] ثم بين سبحانه أن هذا القرآن الذي أنزله علىٰ نبيه ﷺ هو كتابٌ مبارك فيه خير كثير وعلمٌ غزير، وهدىً وشفاءٌ ونور، والحكمة من إنزاله: أن يتدبر الناس آياته، ويتفكروا في معانيها، ويعملوا بها؛ فتحصل لهم هداية العقول والقلوب، وليتذكر ويتعظ بآياته أصحاب العقول الراجحة، والفهوم المستقيمة.

[٣٠] يخبر جل وعلا أنه أكرم نبيه داود عليه السلام فوهبه النبي الصالح سليمان؛ فكان نعم العبد دينًا وخلقًا وعبادة ورجوعًا إلىٰ الله بالتوبة والإنابة، وأكرمه الله بعد أبيه بالرسالة والملك؛ فكان رسولًا وملكًا، وأُعطي مُلكًا لم يعط أحد مثله.

[٣١-٣٣] واذكر يارسول الله حين عُرضت علىٰ سليمان الخيول الأصيلة السريعة من بعد زوال الشمس واستمر العرض حتىٰ غيابها؛ ففاتته صلاة العصر؛ فأدرك أنه أخطأ فندم، وقال: إنني آثرت حب العزة والفخر عن ذكر ربي حتىٰ غابت الشمس، ثم أمر باسترداد الخيول التي أعجبته وقام بقطع سيقانها ورؤوسها بالسيف تقربًا إلىٰ الله بها وبدمائها؛ لعل ذلك يكون تكفيرًا لخطئه؛ فقبلها الله منه. قال بعض المفسرين والشيخ عبدالعزيز المسند في إذاعة القرآن، وعالم الإعجاز القرآني الدكتور زغلول النجار، وآخرون في تفسير هذه الآية: إن سليمان لما رد الخيول مسح أعناقها بيده إما تكريمًا أو إعجابًا بها، وقصدهم إكرام نبي الله من أن ينتقم من بهيمة فيذبحها حنقًا وغيظًا، وغاب عنهم أنه إنما قدمها قربانًا إلىٰ الله لعله يعفو عن إضاعة صلاة العصر، ولعله يرضىٰ عنه، وقد تم ما أراد؛ فأكرمه الله بالنبوة والملك الفريد الذي اختص به، ثم إن نص الآية: ﴿مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾، فهل سيقانها وأضلاعها تمسح؟ فالقائلون - وهم الجمهور - أن قَطْعَ رؤوسها وأقدامها بالسيف أجدر وهو الحق.

[٣٤-٣٥] ثم أخبر جل وعلا أنه امتحن سليمان واختبره يوم أن قال: لأطوفن الليلة علىٰ تسعين امرأة، تأتي كل واحدة بفارس يقاتل في سبيل الله، ولم يقل: إن شاء الله، فلم تلد منهن إلا امرأة واحدة، ولدت نصف إنسان. فأناب سليمان عليه السلام، ورجع إلىٰ الله وتاب إليه؛ فتاب الله عليه، ثم دعا عليه السلام ربَّه قائلًا: ربِّ اغفر لي ما كان مني من خطأ وتقصير، وأعطني مُلْكًا خاصًّا بي لا يكون لأحد بعدي مثله، إنك يارب عظيمُ المواهب والعطايا؛ فسخر الله له الجن والريح.

[٣٦-٣٨] فاستجاب جل وعلا لسليمان دعاءه؛ وسخر له الريح وذللها بأنْ جعلها منقادةً له، فكانت ريحًا لينةً تجري حيث يأمرها وحيث يريد، وذلل له شياطين الجن يستخدمهم فيما يريد من أعمالٍ كالبناء والغوص في البحار ونحو ذلك، ومجموعةٌ أخرىٰ ممن تمرَّد وخرج عن طاعته من مردة الشياطين مقرنين ومصفودين في الأغلال.

[٣٩-٤٠] ثم قال جل وعلا لسليمان: هذا عطاؤنا إياك، وتفضلنا عليك، وإكرامنا لك، فأعط من تشاء، وامنع من تشاء، فلن نحاسبك علىٰ ذلك؛ لمعرفتنا بكمال عدلك وتقواك وفضلك. ثم أخبر سبحانه بأن لسليمان في الآخرة لمنزلةً عاليةً رفيعةً، وأنه من المقربين عند الله جل في علاه.

[٤١] واذكر يانبي الله بأحسن الذكر نبينا أيوب عليه السلام لما دعا ربه والتجأ إليه، وطرح همه عليه، واشتكىٰ إليه أن الشيطان أصابه بألم شديد، فأصبح في مشقة وتعب وعذاب، وَنَسَبَ عليه السلام الضر الذي أصابه إلىٰ الشيطان مع أنه من الله لأنه السبب في الذنب وهو الذي جعله يُعْجَبُ بكثرة ماله، وقيل: لأن محتاجًا استغاثه فلم يغثه.

[٤٢] ثم أمر جل وعلا نبيه أيوب أن يضرب الأرض برجله فسينبع منها ماءٌ عذبٌ يشرب منه ثم يغتسل منه، وسيذهب عنه الأذىٰ والضر.

وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا ۖ فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾

[٤٣] ثم إن الله جل وعلا كشف ما بأيوب من ضرٍّ، وأرجع له أهله، وزادهم فكانوا مثلي ما كانوا من قبل؛ رحمةً منه سبحانه بأيوب، وعظةً وعبرةً لأصحاب العقول الراجحة والفِطَر السليمة.

[٤٤] ثم أمر جل وعلا نبيه أيوب أن يأخذ حزمة من شماريخ النخل ويضرب بها زوجته إبرارًا بيمينه؛ وسبب حنث أيوب في يمينه أن زوجته كانت تتردد علىٰ زوجها يوميًّا للعناية به، فأخطأت ذات يوم فغضب عليها، فأقسم أن يضربها مئة سوط؛ فبرحمة من الله خفف العقوبة بأن يأخذ عذق نخلة يابسًا قد نزع تمره، وفيه أكثر من مائة شمراخ؛ فيضربها به مرة واحدة، ثم أخبره سبحانه أن هذا العمل لا يجعله يحنث في يمينه؛ فرحمه الله ورحمه بهذه الفتوىٰ.

ثم أخبر سبحانه أن أيوب كان صابرًا علىٰ البلاء، فنِعم العبد هو، إنه رجَّاع إلىٰ طاعة الله

وقد استدل بعض العلماء بهذه الآية في التخفيف علىٰ الضعيف والكبير الذي يرتكب جرمًا يستوجب الجلد إذا كان الجلد يمرضه أو يهلكه.

[٤٥-٤٦] واذكر يانبي الله بأحسن الذكر عبادنا الذين أخلصوا لله العبادة: إبراهيم وإسحاق ويعقوب، أصحاب القوَّة في العبادة والطاعة، وأصحاب البصيرة في دين الله.

ثم أخبر سبحانه أنه خصهم بخصلة امتازوا بها عن غيرهم، وهي تذكر الدار الآخرة علىٰ الدوام، والعمل والاستعداد لها. وإنهم عند الله سبحانه لمن المختَارين من صفوة البشر، وهم من الأخيار الصالحين.

[٤٨] واذكر يانبي الله بأحسن الذكر أيْضًا عبادنا إسماعيل واليسع وذا الكفل، فكل هؤلاء الأنبياء ممن اختارهم الله واصطفاهم، واختار لهم أكمل الصفات والأحوال.

[٤٩-٥٠-٥١-٥٢-٥٣-٥٤] ثم بين سبحانه أن هذا الذي قصه علىٰ نبيه ﷺ ذكر حسنٌ وثناءٌ جميلٌ لهؤلاء الأنبياء، وبين جل في علاه أن الله وعد المتقين من عباده الذين جعلوا بينهم وبين عذاب الله وقايةً بفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ وعْدًا كريمًا أن مرجعهم ومثواهم في غاية الحُسْنِ، وهو الخلود في جنات النعيم، تلك الجنات: تُفتَح لهم أبوابها إكرامًا لهم، فيدخلونها، ويجلسون متكئين فيها علىٰ الأرائك المزينات، ويطلبون - وهم علىٰ هذه الحالة - أنواع الفواكه والشراب الكثيرة التي يشتهونها. وعندهم في الجنة الحور العين اللاتي يقصرن أطرافهن علىٰ أزواجهنّ، وهنَّ في سنٍّ واحدة، وهو أعدل سنِّ الشباب وأحسنه وألذّه. ثم يقال لأهل الجنة: هذا النعيم الذي وعدكم الله أن تلقوه يوم الحساب والجزاء، وأيضًا هذا النعيم الذي رزقكم به دائمٌ مستمرٌّ، لا ينقطع ولا يفنىٰ نسأل الله الكريم من فضله.

[٥٥-٥٦-٥٧-٥٨] واعلموا أن هذا النعيم الذي وصفناه لكم جزاء للمتقين، أما الطاغون المتجاوزون حدَّهم في الشرك والعناد وتكذيب الرُّسُل؛ فإن مصيرهم ومرجعهم لأسوأ مرجع وأقْبَحُه، وهو نار جهنم يدخلونها ويعذبون فيها عذابًا يحيط بهم من كل جانب، فبئس ما مهَّدوا لأنفسهم، وبئس فِرَاشُ النار الذي أُعِدَّ لهم مسكنًا ومستقرًّا. وهذا المرجع والمصير المخزي ليذوقُه ويقاسيه أهل النار، مع ماءٍ مغليٍّ شديد الحرارة فإذا شربوه يكاد أن يقطع أمعاءهم، ويشربون معه ما سال من جلود ولحوم وفروج أهل النار من عصارة وصديد وقيْح. ولهم عذابٌ آخر من نوعه، فهم في النار يُقاسون أصناف الخزي، وألوان العذاب.

[٥٩-٦٠-٦١] ثم يُقال لقادة الكفر والضلال وهم يُعذّبون في النار: هذا فريقٌ من الكفار يقتحم النار ويدخلها معكم، فيقول القادة: لا مرحبًا بهم، ولا سعة عليهم، ولا راحة لهم، فهم داخلون للنار، مقاسون حرها وإحراقها ولهيبها. فيقول الأتباع للسادة المتبوعين: بل أنتم لا مرحبًا بكم، ولا تحيَّة لكم، ولا سعة لكم؛ فأنتم السبب في دخولنا النار بما كنتم تزينونه لنا من الشرك والكفر والضلال، فبئس مرجعنا ومستقرنا الذي صرنا إليه بسبب طاعتنا إياكم. ثم يدعون عليهم - بعد أن انقطعت بينهم كل مودة وموالاة - قائلين: ربنا هؤلاء كانوا السبب فيما نحن فيه، فضاعف لهم العذاب.

وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ
سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ
ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾
رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟
عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ
إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ
رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ
فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ
أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ
يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ
مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ
﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ
﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ
ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ
لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾

[٦٢] ثم قال الطغاة في جهنم: ما لنا لا نرىٰ بأعيننا - في النار - رجالًا كنا نعدهم ونحسبهم في الدنيا من الأشرار؟ ويعنون بذلك فقراء المسلمين وضعافهم.

[٦٣] وقال هؤلاء الطغاة أيضًا: هل أولئك الذين كنا نسخر منهم في الدنيا كانوا هم علىٰ الحق؟ أم أنهم دخلوا النار، ولكن زاغت أبصارنا عنهم فلم نرهم.!

[٦٤] واعلموا أيها الناس أن ذلك التخاصم والتبادل والتجادل بين أهل النار حقٌّ لا شك فيه، وصدقٌ لا مرية فيه.

[٦٥] وقل يانبي الله لهؤلاء المشركين: ما أنا إلا نذيرٌ لكم، أحذّركم الشركَ، وأُنذركم عواقبه، واعلموا أنه ما من إله يُعبد بحقٍّ إلا الله الواحد الأحد، القهار الذي قهر وغلب كل شيء.

[٦٦] ثم بين سبحانه أن هذا الواحد القهار هو خالق ومالك السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما، ومدبرهما بجميع أنواع التدبير، العزيز الغالب الغفّار، كثير المغفرة لمن تاب إلىٰ الله ورجع إليه.

[٦٧] وقل يانبي الله لهؤلاء المشركين مخوفًا ومحذرًا: اعلموا أيها الكفار إن ما جئتكم به من القرآن والتوحيد والبعث والنشور؛ هو خبرٌ عظيمٌ، وشأنٌ خطيرٌ، يجب أن تنتبهوا له، ولا تغفلوا عنه.

[٦٨] ثم قال ﷺ لهؤلاء المشركين: ولكني أراكم ياقومي معرضين عن هذا القرءان، غير مبالين به!!

[٦٩] وقال لهم ﷺ أيضًا: ويا قوم لم يكن لي أن أعلم - قبل الوحي - بما يدور في الملأ الأعلىٰ في خلق آدم، الذي سيأتي ذكره في الآيات التالية.

[٧٠] واعلموا ياقومي: إن هذا الوحي ينزل علي لأني رسول من عند رب العلمين، وأن وظيفتي أن أنذركم بما يكلفني به ربي من الآيات والذكر الحكيم.

[٧١] واذكر يانبي الله يوم أن قال الله للملائكة: إني خالقٌ بشرًا مادته من طين.

[٧٢] ثم قال سبحانه: فإذا أتممت خلقه ونفخت فيه من روحي؛ فاسجدوا له طاعة لأمري، وإكرامًا له.

[٧٣] ثم بين سبحانه أن الملائكة امتثلوا أمْرَ الله، وسجدوا جميعًا لآدم.

[٧٤] ثم استثنىٰ سبحانه فقال: أما إبليس فقد أبىٰ السجود، واستكبر علىٰ أمر الله، وكان من الكافرين الجاحدين الخارجين عن طاعة الله.

[٧٥] فقال جل وعلا لإبليس موبِّخًا إياه: ما الذي منعك ياإبليس من امتثال أمري للسجود لآدم الذي خلقته بيديَّ تكريمًا له ولذريته؟! هل استكبرت عن السجود الآن؟ أم كنت من العالين؟!! وقد استدل العلماء بهذه الآية علىٰ أن لله يدين تَليقَانِ بجلاله من غير تشبيه أو تمثيل، وأن هذا تكريم لآدم وذريته؛ لأن بقية الخلق خُلقوا بكلمة (كن).

[٧٦] فأجاب إبليس اللعين قائلًا: كيف أسجد له وأنا أفضل منه؟! فأنت خلقتني من نارٍ، وخلقته من طين، وعنصر النار أفضل وأحسن من عنصر الطين!

[٧٧] فقال له الله جل في علاه: اخرج أيها اللعين من المحل الكريم، فإنك مُبعَدٌ مدحور.

[٧٨] ثم قال له سبحانه: وسوف أُحل عليك طردي وإبعادي من رحمتي دائمًا أبدًا.

[٧٩] فقال إبليس اللعين: رب فأمهلني، ولا تقضي عليَّ، وأخِّر أَجَلِي إلىٰ يوم يُبعث بنو آدم، وذلك ليتمكن اللعين من غواية من يستطيع غوايته، فلا يدخل النار لوحده.

[٨٠-٨١] فقال له جلَّ في علاه: إنك يا إبليس من المُمْهَلين المُبقىٰ علىٰ حياتهم إلىٰ يوم الوقت المعلوم، إلىٰ حين النفخة الأولىٰ التي يموت بها الثقلان.

[٨٢] فقال إبليس اللعين مقسمًا بعزَّة الله: لأغوينَ يارب بني آدم ولأضلنهم أجمعين.

[٨٣] ثم استثنىٰ اللعين فقال: إلا من أخلصتهم لعبادتك، وأكرمتهم بطاعتك؛ فهؤلاء لا سبيل لي عليهم، ولا طاقة لي بهم.

قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ
﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾

سُورَةُ الزُّمَرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ
الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا
لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ
مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ
بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ
كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ
مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ
﴿٤﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى
النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ
كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٥﴾

[٨٤-٨٥] فقال جل وعلا: الحقُّ وصفي، والحق قولي، فإني أقول الحق الذي لا شك فيه: لأملأنَّ جهنَّم منك يا إبليس، وممن تبعك من بني آدم ومشى خلفك، وسار على طريقتك في الغواية والضلال.

[٨٦] وقل يا نبي الله لهؤلاء المشركين: لا أطلب منكم أجرًا على ما أمرني به ربي أن أبلغه لكم، ولست ممن يحتال على الناس فأدَّعي ما ليس لي؛ بل إني رسول الله أتبع ما يوحى إليَّ.

[٨٧-٨٨] واعلموا أن هذا القرآن الكريم والوحي ما هو إلا موعظةٌ وتذكيرٌ للعالمين من الجن والإنس، فبه يتَّعظون، وبه يهتدون. وسوف تعرفون وتعلمون صدق هذا القرآن، وما أخبر به من وعد ووعيد حين يقع بكم العذاب، وتنقطع بكم الأسباب. وهذه الآية من آيات الإعجاز؛ فقد تبين في كل عصر شيء مما احتواه هذا القرآن من أعمال الغيب.

سورة الزّمر

سورة الزمر مكيّة وآياتها خمس وسبعون آية.

[١] يخبر جل وعلا أن هذا القرآن العظيم إنما هو تنزيل من الله لا من غيره كما يقول المشركون، وقد أنزله سبحانه على نبيه محمدٍ ﷺ؛ فاعملوا بما تضمنه من أحكام وأوامر، وهو سبحانه الغالب على كل شيء، الحكيم في جميع تصرفاته وأفعاله.

[٢] ثم بين سبحانه أن هذا القرآن الذي أنزله على نبيه ﷺ كله حق ونور وهدى للعالمين، وهو شامل لتوحيد الله والإيمان برسله وأمور المعاد وأعمال الدنيا من عبادة الله وإعمار الأرض وغير ذلك، ثم أمر جل في علاه نبيه ﷺ أن يخلص العبادة لله وحده، وأن يخلص التجاءَه لله، والأمر له ﷺ ليلزم أتباعه به.

[٣] واعلموا أيها الناس أن لله وحده الدين الخالص من شوائب الشرك والرياء، وأن أولئك المشركين الذين اتخذوا من دون الله أولياء، كانوا يقولون: ما نعبد تلك الآلهة إلا لتشفع لنا عند الله، وتقربنا عنده منزلة؛ فهؤلاء لا شك أنهم في ضلال وكفر مبين؛ وسوف يفصل سبحانه بين المؤمنين والمشركين يوم القيامة فيما اختلفوا فيه من أمر التوحيد والشرك؛ فيجازي كلًّا بما يستحق؛ فهو جل في علاه ليس بينه وبين أحد من خلقة وسائط فالخلق خلقه، وكلهم عبيده، والجميع محتاج إلى رحمته، وإنه سبحانه لا يوفق طريق الهدى والاستقامة لكل مفتر على الله مصر على العناد والكفر؛ لأنه اختار الضلال وأصر عليه، أما الراغب في الخير الملتمس للرشاد فهو الجدير بالمعونة والهداية.

[٤] ثم يخبر جل وعلا على سبيل الفرض والتقدير لو أراد سبحانه أن يتخذ ولدًا لاختار من خلقه ما يريد، ولكن تنزه وتقدس جل في علاه عن أن يكون له ولد؛ فهو سبحانه الواحد الأحد، الفرد الصمد، في ذاته وصفاته، القهار الذي قهر خلقه بقدرته.

قال ابن كثير رحمه الله: ثم بين تعالى أنه لا ولد له كما يزعمه جهلة المشركين في الملائكة، والمعاندون من اليهود والنصارى في العزير، وعيسى، فقال: ﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾، أي: لكان الأمر على خلاف ما يزعمون.

ومعلوم أن الولد يُطلَبُ لِيخْلف أباه ويساعده في أموره وشيخوخته، والله جل وعلا لا يتصف بشيء من صفات الضعف، ثم إن ما سوى الله مخلوق، والمخلوق لا يكون ولدًا للخالق؛ فتنزه سبحانه عن النقص والحاجة؛ فهو الغني الحميد الذي لا يحتاج إلى شيء، والخلق كلهم محتاجون إليه.

[٥] واعلموا أيها الناس أن الله وحده هو الذي خلق السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما بالحق، أي: الصواب الذي اقتضته حكمته وقدرته لمصالح عباده الذين اختاروا وحملوا الأمانه؛ فتنزه سبحانه عن أن يخلق شيئًا عبثًا أو باطلًا، وبين سبحانه أنه خلق الليل والنهار، وجعل كلًّا منهما يغطي على الآخر؛ فالليل يغطي نور النهار حتى يذهب بضوئه، والنهار يغشى الليل ويلتف عليه حتى يذهب بظلمته، وهكذا، ثم بين سبحانه أنه ذلل الشمس والقمر بانتظام لمنافع العباد، وكلٌّ من الشمس والقمر يجري في مداره إلى حين قيام الساعة، واعلموا أن الخالق لهذه المخلوقات هو الغالب على كل ما سواه، الكثير المغفرة لذنوب عباده التائبين.